ليلة في "تيبسة"

ممدوح عدوان

كنا اربعة من الشعراء الذين شاركوا في مهرجان بيروت الشعري – امسية الجزائر. دعانا اتحاد كتاب فلسطين – فرع الجزائر لالقاء الشعر في تيبسة حيث يقيم الفدائيون الفلسطينيون الخارجون من بيروت.

حين نزلت بنا الطائرة في مطار تيبسة اعلنت المضيفة ان درجة الحرارة في خارج الطائرة هي "اربع درجات فوق الصفر.

اربع درجات! ولم أحس بالحاجة الى ان ارتدي سترتي التي كنت قد خلعتها في الطائرة. علقتها على يدي وحملت كيسي الذي يحتوي على القليل من امتعتي الشخصية ودفتر اشعاري وتوجهت الى باب الطائرة.

وما ان اقتربت من الباب حتى صفعتني نسمة قارسة جعلتني اتوقف فورا وألبس سترتي واحكم شدها على جسدي.

وعلى سلم الطائرة اتضح ان النزول الى ارض المطار قد صار مغامرة كبيرة. ولكن لم يكن هناك بد من ذلك. وبالسرعة التي نستطيع الركض بها وصلنا الى قاعة المسافرين لنحتمي من شفرات الريح الحادة التي كانت تنشر العظام... ماذا يعني الجزائريون بتعبير « اربع درجات » ؟ لا شك انها اربعون تحت الصفر.

في القاعة صار بوسعنا ان نلتقط انفاسنا وان نلقي نظرة على العالم من حولنا.

اقترح مرافقنا ان نشرب الشاي في صالة المسافرين فرفضت. قلت له دعنا نخرج بأسرع ما نستطيع. سنشرب الشاي فيما بعد. وكنت، بيني وبين نفسي، اريد تأجيل كل شيء الى ان نصل الى الفندق الذي توقعت ان ينزلوا به. هناك ساستحم بمياه ساخنة واشرب الشاي واتمدد في الفراش حتى يجيء موعد الامسية.

اسرعنا الى الباص الذي ينتظرنا واسرع بنا بدوره الى المعسكر. ولكن الباص توقف مرتين في الطريق لان الزيت في محركه قد تجمد. وكانت الوقفة الثانية عند باب المعسكر فنزلنا واكملنا سيرا على الاقدام. وعلى الرغم من البرد الشديد الذي كاد ان يجمد الدماء في عروقنا خجلنا ان نركض. سيرانا الفدائيون ويسخرون منا. علينا ان نتماسك، ونسير بما نستطيعه من الهدوء حتى المبنى الذي سيستقبلوننا به.. واستطعنا ان نصل الى المبنى.

رحب بنا ضباط فلسطينيون وقدموا لنا الشاي. وبدأنا نحتسيه ونحن نطل من نوافذ القاعة الى حيث البراكات والمقطورات والابنية الاخرى. ولا احد منا في الخارج. تحت امرأة تلقي باوساخ خارج احدى المقطورات وحين سألت عنها اجابوني بان هناك عددا من العائلات مع الفدائيين هنا.

شيء من الخجل الريفي منعنا من طلب اي شيء.. وحتى من الاستفسار اين سنستريح. نحن ضيوف وسنترك مضيفينا يتصرفون.

حورنا الاسئلة الى سؤال واحد: وبعد ؟ ماذا سنفعل الآن ؟

تجاءنا الجواب: الغداء هنا.

والى ان يحين موعد الغداء ماذا سنفعل ؟

اقترح بعضنا ان نحتسي النبيذ فهو وحده يستطيع ان يدفيء عظامنا في طقس ضار كهذا. ولكن، بوضوح شديد، ابلغنا ان المشروبات لا تدخل الى المعسكر. اذن. والى ان يحين موعد الغداء دعونا ننزل الى المدينة نتفرج ونتسوق. وتغامزنا فيما بيننا « سنشتري مشروبا او ندخل بارا. »

جاءت سيارة وبدأ الجدل: اي جنون يدفعكم الى النزول في هذا البرد؟ ابقوا هنا. ماذ سترون في تيبسة. واخيرا نزلت الى السيارة مع نزيه ابو عفش. السائق الجزائري ابن البلدة، جال فيها خمس دقائق وقال ان البلدة قد انتهت.

انتهت؟ هذه البيوت الفقيرة والشوارع غير المعبدة هي تيبسة؟ قف حيثما شئت. سننزل الى الحوانيت. قال السائق باسما: في تيبسة ليست هناك مطاعم إلا للشواء. ليست هناك خمور او بارات. كابرنا وقلنا له اننا لم نأت من أجل ذلك لكننا نريد ان نشتري بعض الملابس التقليدية او الصناعات الشعبية.

دخلنا اربعة حوانيت وخرجنا دون ان نشتري من تلك العباءات التي يرتديها ابناء المنطقة نظرا لغلاء ثمنها. وبعد ان خرجنا من الحانوت الرابع كان نزيه قد اصيب بالزكام وبدأنا نبحث عن مناديل جيب.

البرد الشديد واقتراب وقت الظهيرة الذي يعني اغلاق الحوانيت وبدء الثلج بالهطول. هذا كله اقنع نزيه بان لا ضرورة لاطالة البحث عن مناديل جيب.

ازدادت حدة البرد. وصار الوصول الى السيارة مصيبة. وحين دخلناها كان علينا ان نصمت خمس دقائق على الاقل ونحن نفرك مفاصلنا ونمسح عيوننا وانوفنا.

هنا يعيش الفدائيون في منطقة تذكرك بسيبيريا في روايات القرن التاسع عشر. تذكرت قصة جاك لندن « محاولة اشعال نار » عن رجل يقتله البرد وهو يحاول عبثا ان يشعل عود الثقاب واطرافه تتجمد واحدا بعد الآخر. وتذكر ايضا قصة لاكزوبري عن طيار تحطمت طائرته في الانديز وكان عليه ان يمشي لكي لا يموت برفاقه وفي لحظة ما بنهاية التعب يخشى ان يغفو فيتذكر اهله واصدقاءه ويقول لنفسه: انهم يفكرون بي ويأملون انني امشي واكون نفذا أمش. (هذه القصة رواها نزيه للفدائيين في الامسية).

حين وصلنا المعسكر وحكينا عن قصة تيبسة لزميلينا الشاعرين الفلسطينيين محمد القيسي وفواز عيد برز السؤال الصعب الذي اربكنا جميعا.

ماذا تقول في الامسية لهؤلاء الفدائيين الذين عاشوا معركة بيروت والذين يعيشون هذه الظروف الآن ؟ وتتطور السؤال الى درجة محيرة: هل لدى هؤلاء الفدائيين قابلية لتلقي الشعر وهم يعيشون هذه الظروف؟ ثم أليس من العبث ان نجبر هؤلاء على الجلوس ساعتين او أكثر في القاعة وفي هذا البرد الشديد لسماع الشعر؟

ابتسم مرافقنا الدكتور الشاعر المذيع المثقف من بيروت ايضا وقال: لا داعي للارتباك.

قلنا له: قصائدنا عن بيروت. وهؤلاء هم من بيروت. وهم من صنع الملحمة. ماذا تقول لهم ثم ان في قصائدنا أشياء عن مجزرة صبرا وشاتيلا.. ولدى عدد كبير منهم عائلات قتلت هناك. أليس من السادية ان نقرأ لهم شعرا عن المجزرة ؟

ابتسم الدكتور مرة اخرى وقال: اقرأوا لهم غزلا.

ظننا بسخر منا. غزل؟ وفي هذا الظرف القاتل ؟ ولهؤلاء بالذات؟

قال: ياأخي هؤلاء في النهاية شباب ويحبون الحياة. اقرأوا لهم غزلا. بدأت الفكرة تجد طريقها وتلقى قبولا لدينا. ولكن من منا يحفظ له غزلا من قبل؟ ومن منا جلب معه شعرا غزليا ؟ ومن كان يتوقع ذلك ؟

بعد الغداء والاستراحة (نام البعض) توجه الجزائري ازراج عمر حتى صباح اليوم التالي الى ذهبنا الى قاعة كبيرة حيث قدم لنا الغداء ؟ ضيوف جزائريون رسميون تمت دعوتهم الى الامسية ثم، وبسرعة شديدة، امتلأت القاعة بالفدائيين وتحولت الى مكان لالقاء الشعر..

ودخل الفدائيون !

كانوا قادمين من التدريب. شباب اكثر من نصفهم دون العشرين. بينهم فتاة او فتاتان. وجوههم حمراء معافاة. ملأوا القاعة والقلوب. ساد الهدوء من الضجيج ثم الصمت. ومن الثافذة كان الثلج يهطل بكثافة.

لم اعد اعرف كيف صرنا لا نحس بالبرد.

دفء وجودهم؟ أم خجلنا من الارتعاش امامهم؟ أم تلاقي الأنفاس البشرية ؟

وبصوت هادىء تحدث ضابط فلسطيني عن الأهمية التي يرونها في الشعر وعن الامل الذي يعلقونه على مثقفي الأمة.. وعن حاجتهم الى لقاءات كهذه.

دفء وجود الفدائيين وحديث هذا الضابط الجميل اعاد الى انفسنا شيئا من الثقة التي كنا قد افتقدناها.

وابتدأت الأمسية كانت شيئا خاصا علمنا الكثير. تبين لي مثلا اننا كما نحن الشعراء نريد براءة ذمة موقعة من هؤلاء الشباب. نريد منهم اعترافا بنا. ولكن المفاجأة هي انهم لا يرون في انفسهم خصوصية. يرون انهم عاديون. ابطال لا يعرفون انهم ابطال. او لا يهمهم تفحص بطولتهم. يفعلون ما يفعلونه لأنه الشيء الطبيعي الذي يجب ان يفعلوه. وما تبقى فهم شباب. يضحكون حتى الانفجار من النكات التي القيناها عليهم. وتشع عيونهم بريق الحياة الساطع ونحن نقرأ عليهم اشعارا غزلية حفظناها. ويلتقطون بذكاء لماح اشاراتنا الشعرية ويتفجرون حماسا للأبيات الوطنية.

كانت سهرة ولم تكن امسية. نسينا بسرعة خلافا رداءة الطقس الوحشية وسؤال نزيه :« كنا نتساءل كيف تحملوا ما جرى في بيروت؟ والآن نتساءل: كيف يتحملون هذا البرد؟) وقال الضابط ان قسما من الفدائيين قد فاته الاستمتاع بالسهرة معنا لانه يقوم بتدريب ليلي في الجبال في هذه اللحظات وفي الوقت الذي شئنا ان نعتذر فهم فيه في نهاية الامسية لأننا صلبناهم امام اشعارنا في هذه الساعات الباردة كانت رغبتهم في استمرار السهرة الجميلة المسلية قد تضاعفت. وتبين لنا انهم جلبوا شبابات وناياث وآلات ايقاعية ليعزفوا ويدبكوا. ولم يوافقهم الضابط لأن عليهم ان يستيقظوا باكرا من اجل التدريب.

هؤلاء هم نخبرة الشعب الذي لن يموت. هؤلاء هم الذين مروا بالشتات والمنافي والمجازر والمعارك والحصارات ولم يتعبوا. ما زالوا فتيانا يتدربون ويعشقون ويدبكون. وهم الذين اربكوا العدو ودهش الصحفيون الاجانب بهم وسموهم « فتيان آذار الجزائري حي ».

عندما خرجنا من القاعة كان الثلج قد غطى الارض. وكان ما يزال يهطل. وتهيأنا للركض الى القاعة التي سننام فيها (نسينا الفنادق والحمامات الساخنة طبعا) فوجئنا بان عشرات من الفدائيين الشبان واقفون في الخارج ينتظروننا. يريدون ان يتحدثوا ويناقشوا ويسألوا.. ويريدون جمع النواقيع. حتى هذه لديكم وقت من اجلها؟ لذلك لم نركض. وقفنا معهم وتحدثنا ونسينا الثلج والريح والبرد ولم تعد اطرافنا ترتجف.

اخيرا في المقطورة التي سننام فيها كان يؤمن حاجياتنا فدائي خسر يده في القتال. ويد واحدة راح يجلب لنا البطانيات وابريق الشاي و « البيجامات » ــ هدية لنا ــ ثم جلب ورقا للعب نتسلى به واخيرا آلة تسجيل واشرطة.

وفيما نحن نلعب الورق ونستمع الى فيروز كنا نتبادل اندهاشاتنا بهؤلاء الشبان. وحين وصلنا الى تساؤلنا أولديهم وقت لجمع التواقيع والاهتمام بهوايات كهذه؟ ابتسم الفدائي الذي خسر يده وأوقف شريط فيروز وقال: اسمعوا هذا الشريط.

وكانت تلك المعجزة.

الفدائيون الشبان في بيروت تحت القصف والحصار كانوا يتابعون هوايتهم الخاصة. وسجل عدد منهم اشرطة عن المعركة.

ما المقصود بتسجيل المعركة؟

ببساطة يحمل مع سلاحه آلة تسجيل يسجل بها اصوات القذائف والقصف. ويمتعة من يصف لك مشهدا غراميا او يحكي لك عن رحلة صيد بدأ الفدائي يشرح لنا الشريط: اسمع هذه قذيفة من السفن الاسرائيلية. هذه قذائف طيران. هذه مدفعية هذه راجمتنا. هذه قذيفة آربي جي. هنا كانوا قد وصلوا الى المكان الفلاني. اسمع الكلاشن... ياعيني عليك ياسعيد. هنا فتح رشاشه.. اسمع اصوات تراجعهم. فشلت محاولة الانزال. اسمع. اسمع هذه راجتنا تطلق صواريخها. انتبه. بعد انتهاء الضرب. محرك السيارة دائر. الشباب ينطلقون. اتسمع صوت السيارة؟ يهربون الآن لأن العدو سيقصف الراجمة. نفدوا. جاءت القذيفة المعادية. اسمع. هذه هي.

غير معقول. بيروت في شريط. وفدائي يقاتل تلك المعركة الملحمة وهو يسجلها على شريط. لماذا؟ ليتسلى بها فيما بعد. وبالتأكيد لم يكن يخطر له انه سيموت. حسن سأل احد الشبان من اصحاب الاشرطة ان كان من الممكن ان يعطي هذه الاشرطة للفنيين لاستخدامها كمؤثرات حية في الاذاعة دهش: هل حقا لها اية قيمة انا سجلتها لأتسلى بها.

كيف يتسلى بها؟

يضع رأسه على الوسادة ويشغل آلة التسجيل فينام على انغام القصف وذكريات بيروت.

حين استيقظنا صباحا كان الثلج يغطي الدنيا. وكان البرد أشد مما كان يوم امس. وكان المعسكر هادئا وخاليا. الجميع خرجوا الى التدريب.

وخرجنا في سيارة مودعين بمثل ما استقبلنا به من برد.

ولكننا، حتما، لم نكن الاشخاص انفسهم الذين دخلوا ظهر يوم امس الى المعسكر. لقد تغيرنا بعد ان دخلنا هذا العالم.

الادب الصهيوني الحديث

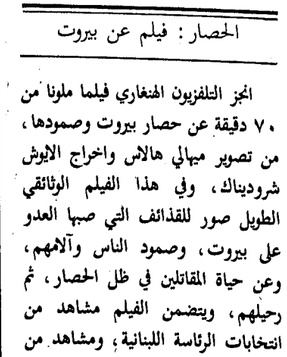

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، صدر كتاب « الادب الصهيوني الحديث بين الأرث والواقع » لجودت اسعد.

يتضمن الكتاب مقدمة وبحثا في الجذور التاريخية – التراث الديني واللغة العبرية – الثبات الوجود – الدعوة الى الانغلاق – المنطق العنصري – فلسطين في الادب الصهيوني – الادب الصهيوني وجها لوجه امام الموت – الصراع النفسي – عقدة الصنعة – عقدة التعالي – مظاهر الصراع في الأدب – المفاوضات السياسية وارتفاع المعدوات – النكسة المستمرة وتواصل الموت – الادب الصهيوني والسوابق التاريخية – ما يتحمله الادب الصهيوني – المصادر. ويقع الكتاب في ١٥٢ صفحة من الحجم المتوسط.

الحصار : فيلم عن بيروت

المخرج التلفزيون الهنغاري فيلما ملونا من ٧٠ دقيقة عن حصار بيروت وصمودها، من تصوير ميالي هالاس واخراج الايوش شروديناك، وفي هذا الفيلم الوثائقي الطويل صور للقذائف التي صبها العدو على بيروت، وصمود الناس وآلامهم، وعن حياة المقاتلين في ظل الحصار، ثم رحيلهم، ويتضمن الفيلم مشاهد من انتخابات الرئاسة اللبنانية، ومشاهد من التدمير الذي اصاب بيروت ومخيمات الفلسطينيين، ومعسكرات الاعتقال الاسرائيلية المكثفة، ولقاءات مع الرئيس امين الجميل وبيار الجميل، وبشير الجميل، والرئيس السابق سليمان فرنجية وصائب سلام وكمال جنبلاط ورئيس الوزراء شفيق الوزان، وياسر عرفات وجورج حبش، ثم العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري.

كما ضم الفيلم لقاءات مع المقاتلين واللاجئين الفلسطينيين.

« الدماء تدق النوافذ »

عن دار العودة في بيروت، صدر ديوان « الدماء تدق النوافذ » للشاعر ممدوح عدوان، ويتضمن ستة قصائد هي: الدماء تدق النوافذ، الهروب من ثورة، هاجرت من عروبتها، الجوع يسرق المدينة، الحصار، مهرجان دموي للفقراء.

من قصيدته هاجرت من عروبتها :

كنت اعرف هذي المدينة
كانت شوارعها تتأبطني في ليالي
الضجر
وتواعدني في الغياب
تكاتبني اذ يطول السفر
تشتكي لي، وتنقل بشرى
تذكرني بالزمان القديم
اتوهج شوقا
وحين ارى وجهها في اللقاء ابش
فتبسم
تربكني بابتسامتها الساحرة
والشوارع كانت تلاعبني في
استراحتها
فتغامزني، وتشير الى حلوة عابرة
ثم تغضي حياء اذا ما اختليت بأنثى
بظلمتها
تتصايم عن كذبتي البنية او ضحكتي
الماكرة
واذا جف مني الكلام حياء
تمد المدينة نحوي سواعدها
ياسمينا
فأقطف كيما أبدد عني الخفر